بيانُ الأمور التي تَسْتَلْزِمها المجادَلَةُ بالتي هي أحْسن

الإمام الشيخ
عبد الله سراج الدين
رحمه الله تعالى ورضي عنه

هذا البحث مقتبس من كتاب
(هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان)
من الصفحة ٤٧ حتى الصفحة ٥٥

للشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين الحسيني
بناءً على توجيهات ولده
المهندس الشيخ
محمد محيي الدين سراج الدين
رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

ويمكنك تحميل هذه الأبحاث القيّمة
وتحميل جميع كتب الشيخ الإمام
من موقعه الرسمي والوحيد
WWW.SRAJALDEN.COM
قسم: كتب الإمام
تحميل كتب الإمام وتحميل أبحاث مختارة

مدير الموقع:
الشيخ عبد الله محمد محيي الدين سراج الدين

والمجادلة بالتي هي أحسن تستلزم أموراً:

الأوَّل: أن تكون الحجة على الخصم قائمة على أساس مسلَّم عند الخصم ومقطوع به عنده، كما أخبرنا الله تعالى عن حجج الرسل صلوات الله تعالى على نبينا وعليهم في مناظراتهم للذين عارضوهم من أممهم وعاندوا.

قال الله تعالى لحبيبه سيدنا محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم، ملقناً له حجته على المشركين وغيرهم من الكفرة: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾.

فقرَّرهم بما هم به مقرُّون، واحتج عليهم بما يعرفون، ثم وبَّخهم بعد إقرارهم فقال: ﴿قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ أي: فكيف تُخدعون عن الحق بعد ما عرفتموه وأقررتم به، فادعيتم أن مع الله إلَهاً آخر.

وقال تعالى في تعليم الحجة على من زعم أن عيسى ابن الله، لأنه ولد من غيرأب، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ الآية. فأقام عليهم الحجة في كَذِبهم، وأراهم البرهان بما هم به يقرون ولا يختلفون فيه، وهو آدم المخلوق من غير أب ولا أم.

ونظير هذا ما جاء في الرد على اليهود حين قال قائلهم: والله ما أنزل الله على بشر من شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؟! فأفحمه بما هو عالم به.

وقال تعالى مخبراً عن مناظرة الخليل لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ

تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـًٔا﴾ وهذا من المقرَّر المعروف عندهم ، لأنهم ينحتون بأيديهم ما يعبدون ، كما قال في موضع آخر: ﴿ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ﴾ .

وقال تعالىٰ مخبراً عن مناظرة الخليل للنمرود: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ وفي هذا منتهىٰ الإفحام للخصم ، وإخراسه عن المشاغبة في الكلام ـ كما سيُوَضَّح إن شاء الله تعالىٰ في موضعه ـ.

وعلىٰ هذا المنهج جاءت احتجاجات علىٰ المخالفين والمعاندين ، فكان يأتيهم بالدليل الذي يُقرّ الخصم بصحته وحقيته ، ويحكم علىٰ نفسه ببطلان ما هو عليه ، فَيُذعن للحق ويعترف.

ومن ذلك ما روىٰ الحاكم وصححه ، عن رفاعة بن رافع الزورقي ، أنَّه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء حتىٰ قدما مكة ـ وهذا قبل خروج الستَّة من الأنصار ـ فأتيا النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم.

قال: فقلت: اعرض عليَّ ـ أي: الإسلام ـ فعرض النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم عليه الإسلام وقال لهما: «مَنْ خلق السماوات والأرض والجبال»؟ قلنا: الله.

قال: «فمن خلقكم»؟ قلنا: الله.

قال: «فمن عمل هذه الأصنام التي تعبدون»؟ قلنا: نحن.

قال: «فالخالق أحقُّ بالعبادة أم المخلوق ، أنتم أحق أن يعبدوكم ، وأنتم عملتموها ، والله أحقُّ أن تعبدوه من شيء

عملتموه ، وأنا أدعوكم إلىٰ عبادة الله ، وإلىٰ شهادة أن لا إلٓه إلا الله وأنِّي رسول الله ، وصلة الرحم ، وترك العدوان ، وبغض الناس» أي: وترك بغض الناس.

فقلنا: لو كان الذي تدعونا إليه باطلاً لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق. أي: فكيف وهو حق وحقيقة ثابتة بالقطع.

فأتينا البيت ـ أي: الكعبة المشرَّفة ـ فجلس عند البيت معاذ بن عفراء ، قال رفاعة: فطفت ، وأخرجت سبعة أقداح فجعلتُ له منها قدحاً ، فاستقبلت البيت فضربت بها وقلت: اللهم إن كان ما يدعو إليه مُحمَّد حقاً فأخرج قدحه سبع مرات.

فخرج قدحه سبَع مرات فصحتُ ـ بصوتٍ عالٍ ـ أشهد أن لا إلٓه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فاجتمع الناس عليَّ وقالوا: مجنون ، رجل صبأ ، فقلتُ: بل رجل مؤمن.

ومن ذلك ما رواه ابن خزيمةَ بإسناده ، أَنَّ قريشاً جاءت إلىٰ الحصين ـ والد عمران رضي الله عنهما ـ وكانوا يعظمونه ، فقالوا له: كَلِّم لنا هذا الرجل ـ أي: سيدنا محمداً صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ـ فإنه يذكر آلهتنا ويسبّهم.

فجاؤوا معه حتىٰ جلسوا قريباً مِنْ باب النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم ، فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: «أوسِعوا للشيخ» ـ أي: كبير السنِّ وهو الحصين ـ وكان ابنه عمران وأصحابه متوافرين.

فقال الحصين: ما هذا الذي بَلَغَنا عنكَ ، إنك تشتم آلهتنا وتذكرهم ـ أي: تذمهم ـ؟

فقال صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «يا حُصين كَمْ تعبدُ من إلٓهٍ»؟

فقال الحصين: أعبد سبعاً في الأرض، وواحداً في السماء.

فقال صلّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «فإذا أصابك ضُرّ مَنْ تدعو»؟

فقال الحصين: أدعُو الذي في السماء.

فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «فإذا هلك المال مَنْ تدعو»؟

فقال الحصين: أدعو الذي في السماء.

فقال صلَّى الله عليه وآله وسلم: «فيستجيب لك وحده وتشركهم معه!!؟ أرضيته في الشكر؟ أم تخاف أن يُغلب عليك؟».

فقال الحصين: لا واحدةً من هاتين.

فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «يا حصين أسلِم تَسْلَم» أي: لأَنك أقمت الحجَّة علىٰ نفسك، وبدا لك نور الحق.

فقال الحصين: إن لي قوماً وعشيرة فماذا أقول؟

فقال: «قل: اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وزدْني علماً ينفعني».

فقالها فلم يقم حتىٰ أسلم.

فقام إليه ابنه عمران فَقَبَّل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأىٰ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم ذلك بكىٰ وقال: «بكيتُ من صنيع عمران، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه، ولم يلتفتْ ناحيته، فلمَّا أسلم قضىٰ حقه، فدخلني من ذلك الرِقَّة».

فلما أراد حصين أن يخرج قال صلَّى الله عليه وآله وسلم لأصحابه: «قوموا فشيِّعوه إلىٰ منزله».

فلما خرج من سُدَّة الباب رأته قريش فقالوا: صبأ ، وتفرقوا عنه اهـ كما في (الإصابة).

الثاني: أن يتحمَّل الداعي إلىٰ سبيل الله تعالىٰ جَفوةَ المعانِد وإباءه وتكبُّره عن قبول الحق ، ويُلين له المقال ويلطف الحال.

قال الله تعالىٰ لموسىٰ عليه السلام حين أرسله إلىٰ فرعون يدعوه إلى ربه: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾.

فلما ذهب إليه يدعوه قال له: ﴿ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾.

وروىٰ عَبْدُ بن حميد ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله تعالىٰ مخاطباً لحبيبه الأكرم صلَّىٰ الله عليه وآله وسلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾.

قال قتادة: ذُكِرَ لنا أن نبيَّ الله صلَّى الله عليه وآله وسلّم لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعَّب له وكَبُر عليه.

فقال له النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم: «أرأيت لو كنت في طريق وعْرٍ وَعْثٍ ، فلقيتَ رجلاً تعرف وجهه وتعرف نسبه ، فدعاك إلىٰ طريقٍ واسعٍ سهل أكنت تتبعه»؟.

فقال الرجل: نعم.

فقال صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «فوالذي نَفْس محمدٍ بيده ـ صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ إنكَ لفي أوعرَ من ذلك الطريق لو كنتَ فيه ، وإني لأدعوكَ إلىٰ أسهل من ذلك الطريق لو دُعيت إليه».

قال قتادة: وذُكر لنا أنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلم لقي رجلاً فقال له: «أسلم» فتصعَّده ذلك.

فقال له النبي صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «أرأيتَ لو كان لك فَتَيَان: أحدهما إذا حدَّثك صدقك، وإذا ائتمنته أدَّىٰ إليك، أهو أحبُّ إليك؟ أم فتاك الذي إذا حدَّثك كذبك وإذا ائتمنته خانك»؟

فقال الرجل: بل فتايَ الذي إذا حدَّثني صدقني، وإذا ائتمنتُه أدَّى إليَّ هو أحبُّ إليَّ.

فقال له نبي الله صلَّى الله عليه وآله وسلم: «كذاكم أنتم عند ربكم».

قال قتادة: وذكر لنا أن نبي الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم لقي رجلاً فقال له: «أسلم».

فقال الرجل: إنك لتدعوني إلىٰ أمرٍ أنا له كارهٌ.

فقال له نبيُّ الله صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «وإن كنتَ كارهاً».

والمعنىٰ: أنَّ كراهتك لَم تلقَ موضعها، لأن الذي أدعوك إليه وهو الإسلام، هو محبوب القلوب ومرتاح النفوس، وإنما تتوهَّم أنه مكروه لجهلك بحقيقة ما هو عليه، ولذلك يجب عليك أن تدخل فيه، وتتبينه فتعرف جماله وكماله، فحينئذٍ تصير محباً له، متعشقاً فيه، وتذهب هذه الكراهية المبنية علىٰ أوهام وخيالاتٍ فاسدة، فكم من كارهٍ لأمرٍ أحبَّه حين عرف حقيقته.

ومن ذلك ما ذكره الله تعالىٰ لنا من مناظرة الخليل علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام لأبيه وملاطفته له، واستعطافه إياه، وتحمله غلظته وجَفْوته في سبيل الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ:

قال سبحانه: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴾.

فانظر كيف أَلانَ القول مع أبيه الكافر، وساق إليه الكلام في أحسن سياق، مع الملاطفة والأدب الجميل، والخلق الحسن، مستصحباً في ذلك نصيحته له قائلاً: يا أبت يا أبت، مطالباً له أن ينتقل عما هو فيه من التمادي في الضلال، منبِّهاً له ومذكِّراً له بأن الشيطان الذي استعصىٰ على ربك الرحمن، الذي يرعاك برحمته ونِعَمِه، فكيف تعبد هذا الشيطان الذي هو عدوٌّ لله وعدوٌّ أبيك آدم وعدوُّك.

إلَّا أن الخليل علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام لم يذكر من جناية الشيطان، واحتقاره لآدم، وعداوته لآدم وذريته شيئاً، وإنما اقتصر علىٰ ذكر جنايته وذنبه مع الله تعالىٰ رب العالمين، الذي يدعوه إبراهيم إلىٰ عبادته، وتلك الجناية هي عصيانه واستكباره عن أمر الله تعالىٰ بالسجود لآدم.

وقد صَدَّر تلك النصائح بقوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ﴾ تلطفاً واستعطافاً، يستميله برفق ورقَّة إلىٰ جانب بالحق.

وإذا بأبيه يقابل تلك الملاطفة والاستعطاف بغلظة العناد، وفظاظة الكفر، وعتو الكبر، فيناديه باسمه مقابل: يا أبت، فلم يقل له في الجواب يا بنيَّ بل قال: ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ وراح يهدِّد ، ويرعد ، ويزمجر ، ويهجر ، ولم يَكُ ذلك الموقف العاتي الغليظ يُضعف من ملاطفة الخليل علىٰ نبينا وعليه الصلاة والسلام ، بل بقي علىٰ ما هو عليه قائلاً له : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴾ .

الثالث في شروط المناظرة: أن يتوخىٰ الداعية إلىٰ الله تعالىٰ ويتقصَّد وُضوح الحجة ، ليتجلَّىٰ للخصم نور المَحَجَّة .

قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

فجاء صلَّى الله عليه وآله وسلَّم يدعو إلىٰ الله تعالىٰ بالبرهان الساطع ، والدليل القاطع ، حتىٰ يكون المتبع له والسائر علىٰ سبيله وراءه علىٰ بصيرةٍ من عقيدته وطاعتهِ ، وسعادته ونجاحه في الدنيا والآخرة ، بلا عَماوة ولا غشاوة ، ولا غِواية ولا ضَلالة .

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ .

فمن عَمِي وأغمض عينيه حتى لا يَرى نور الحق؛ فإنه لا يَضُرُّ إلا نفسه ، فإن نور الحق أبْلَج ، وظلام الباطل لَجْلَج .

ومن ثَمَّ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «تركتُكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك» رواه ابن أبي عاصم وغيره ، والسند حسن .

وقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: «والذي نفسي بيده: لقد جئتكم بها بيضاء نَقية» الحديث رواه البيهقي .

ولذلك وصفه الله تعالى في التوراة بقوله سبحانه ـ بعد الترجمة

إلى العربية ـ قال: «ولن يَقْبضه الله تعالى حتى يُقيمَ به الملّة العوجاء ـ أي: المنحرفة عن التوحيد ـ بأن يقولوا: لا إله إلاَّ الله ، ويَفْتَح به أعيناً عُمياً ، وآذاناً صمّاً ، وقلوباً غُلفاً».

فجاء صلّى الله عليه وآله وسلّم بنورٍ ساطعٍ ، وبرهانٍ قاطعٍ ، كما وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ ، ففتح الله به القلوب المغلقة ، وبَصَّر به الأعين العمياء ، وأسمع به الآذان الصمَّاء ، فتجلّى نور الحق ، وقامتْ الحجة على جميع الخلق ، فجزاه الله تعالى عنَّا أفضل ما جازى رسولاً عن أمته صلّى الله عليه وآله وسلم.

جزى الله عنا نبينا سيدنا محمداً صلّى الله عليه وآله وسلّم ما هو أهله ، والحمد لله الذي أنعم علينا بنبينا سيدنا محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم ، حمداً يُوافي نعمه ويكافىء مزيده.

* * *